(النظام الأحسن) في الفلسفة والعرفان الإسلامي

محسن حيدري (الكاتب المسؤول)
طالب دكتوراه في الفلسفة والكلام الإسلامي، جامعة العلوم الإسلامية الرضوية، مشهد المقدسة، إيران
M.h6813@yahoo.com
مهرداد حسن بيگي
طالب دكتوراه في الفلسفة والكلام الإسلامي، جامعة الإمام الصادق a، طهران، إيران
Me.hasanbaygi@gmail.com
ساره تقوايي
الأستاذة المساعدة وعضو هيأة التدريس في قسم الفلسفة، جامعة جهرم، إيران
Sareh_taghvaee@yahoo.com

(The best arrangement of things) in Islamic Philosophy and Mysticism

Mohsen Heidari (Responsible author)
PhD Student in Islamic Philosophy and Theology , University of Islamic Sciences Razavi , Mashhad , Iran
Mehrdad Hasanbaygi
PhD Student in Philosophy and Islamic Theology , Imam Sadiq University , Tehran , Iran
Sareh Taghvaee
Assistant Professor , Department of Islamic Philosophy and Theology Faculty of Literature and Humanities , Jahrom University , Iran

الملخص:-

لطالما نظر حكماء المسلمين في مسألة "النظام الأحسن"، وقد تحدث كل منهم عن هذه المسألة في مؤلفاته. سعت كل مدرسة فلسفية بمبادئها الخاصة في فترات مختلفة من تاريخ الفلسفة الإسلامية، إلى تقديم طرح منسجم للنظام الأفضل.

نسعى في هذا المقال لتقديم شرح للنظام الأحسن، من خلال عرض ركائز وأسس هذه المسألة في أعمال عدد من الفلاسفة المسلمين.

في العرفان الإسلامي، عالم الخلق كله هو مظهر من مظاهر الأسماء والصفات الإلهية، وبما أن كل الأسماء الإلهية حسنة، فإن ظهورات تلك الأسماء (عالم الخلق) ستكون أيضًا حسنة.

أخيرًا، نصل إلى استنتاج مفاده أن كلا من المدرسة الفلاسفية والعرفانية، وعلى الرغم من اختلافهما في المبادئ، نجدهم بتمسكون بطريق واحد لشرح النظام الأفضل، وهو الذات الإلهية.

الكلمات المفتاحية: النظام الأحسن، الفلسفة، المعرفة الإلهية، العناية، العرفان، الأسماء والصفات.

Abstract:-

Muslim mystics have always considered the issue of the "The best arrangement of things", and each of them spoke about this issue in his writings. Each philosophical school, with its own principles, endeavored in different periods in the history of Islamic philosophy to present a coherent proposal for the the best arrangement of things. In this article, we seek to provide an explanation of the the best arrangement of things, by presenting the pillars and foundations of this issue in the works of a number of Muslim philosophers. In Islamic mysticism, the entire world of creation is a manifestation of the divine names and attributes, and since all divine names are good, the manifestations of those names (the world of creation) will also be good. Finally, we come to the conclusion that both the philosophical school and the mysticism, though different in principles, adhere to one way of explaining the best order, the Divine Self.

Key words: the best arrangement of things, philosophy, divine knowledge, providence, mysticism, names and attributes.

المقدمة:ـ

بعد نقد السفسطة وإثبات الحقائق الخارجية، يُطرح السؤال حول ما إذا كانت هذه الكائنات الحقيقية لها انسجام ونظام خاص، أم أنها كانت موجودة بلا انسجام وغير مرتبطة ببعضها البعض؟ فإذا افتراضنا أنها منسجمة، فهل الطريقة التي تنسجم وتتماسك بها هذه الموجودات هي الأفضل؟ هل حالتها تمثل النظام الأحسن باصطلاح الفلاسفة؟

نبحث ف هذه المقالة طريقة إثبات الناظم الأحسن، من خلال استعراض آراء الفلاسفة في هذا المجال، والمقارنة فيما بينها بعد ذكر الأدلةالتي استخدمها هؤلاء الفلاسفة في اثبات وجهة نظره حول النظام الأحسن، ثم ننتقل الى العرفاء والأدلة التي استخدموها في اثبات وجهة نظرهم حول النظام الأحسن.

١- مقدمات الدخول في البحث

١-١- اختلاف رأي الفلسفة والعرفان في إثبات "النظام الأحسن"

يختلف كل علم عن العلوم الأخرى من حيث الأهداف والموضوعات والقضايا. فما يتم بحثه في الفلسفة هو الوجود بالمعنى العام. وفي الإلهيات بالمعنى الأخص، يتم البحث حول ذات، صفات، وأفعال الحق تعالى.

يندرج موضوع وجوب وجود النظام الأحسن ضمن بحث الأفعال الإلهية، ويعتقدون أن النظام الأحسن قد تحقق فعلا، ومن خلال البرهان الّمي يستدلون على تحقق أفضل نظام للوجود.

يتم البحث في علم العرفان حول الحق تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله. يستنتج العرفاء من كون الله خير وكذلك أسمائه وصفاته، ستنتجون أن كل مظاهر الحق هي خير، وأن نظام العالم هو أحسن نظام ممكن.

١-٢- تعريف النظم

يعد النظم من المفاهيم التي يتم فحصها في مسألة نظام الأحسن. بالنسبة لمفهوم النظام، تم اقتراح عدة تعاريف، مثل "الانسجام بين عدة عناصر أو أعضاء" (جوادي آملي، ١٣٨٦:

٢٢٧) أو "الاتصال والتنسيق لتحقيق هدف واحد" (سبحاني، ١٤٢٠: ١٥٧؛ سجادي، ١٣٨٥: ٧٨٧)، لكن النقطة المشتركة في جميع التعاريف هي الانسجام والهدف، أي شيء منظم وهادف.

١-٣- كلمة أحسن

أحسن هو اسم تفضيل من "حسن" على وزن أفعل. حسن في اللغة يعني الجمال، الخير والجيد مقابل القبح، وهو صفة للخير (انوري، ١٣٨١: ٢٥٢٧/٣) والجمع غير القياسي لها محاسن. يقول راغب الأصفهاني في كلمة أحسن: ((عبارة عن كل مبهج مرغوب فيه و ذلك ثلاثة اضرب: مستحسن من جهة العقل، ومستحسن من جهة الهوي، و مستحسن من جهة الحس)). (راغب اصفهاني، ١٤١٢: ٢٣٦)

وبناءعلى ذلك فإن معنى النظام الأحسن في اللغة هو النظام الأعلى والأجمل والأكثراتقانا وهو النظام الذي لا يوجد فيه قبح إطلاقا.

كما أنه من الممكن تقديم تعريف دقيق للنظام الأحسن بناء على الحكمة المتعالية؛ "الوجود كله باعتباره واحد حقيقي والذي يتألف من موجودات معلولة، و هو في أفضل حالات النظم بأفضل خيرات ممكنة إلى أقصى حد. (شيرازي، ١٤١٠: ٧/ ٩١-١١٤)

وفقًا لتعاريف "النظام الأحسن"، يتضح أنه في التفسير الواضح لـ "النظام الأحسن" يجب أن يكون لدينا دائمًا تعريف للنظم وعناصره. يقول البروفيسور جافادي أمولي في هذا الصدد: يمكن تلخيص كمال النظام في ثلاثة أبعاد: البعد الأول هو النظام الفاعلي للأشياء؛ البعد الثاني هو النظام الداخلي للأشياء والبعد الثالث هو النظام الغائي؛ فإذا لم يكن النظام الفاعلي أو الداخلي أو الغائي أو مجموع هذه الأنظمة وأبعاد نظام الوجود الحالي هي الأفضل، سيؤدي ذلك تحديد وتناهي مبدأ العالم وهو الحق تعالى وهذا محال.

لذلك، فإن جميع الأنظمة والأبعاد المختلفة لنظام العالم هي أفضل نظام يمن ان يوجد (جوادي آملي، ١٣٨٧: ٣/ ٦٢١)، ومن هنا نستنتج أن الأبعاد الثلاثة للنظام (الفاعلي، الداخلي، الغائي)، تشكل معيار الأفضلية.

١-٤- الشمولية في نظام الإحسان

الأحسن من حيث النظام ككل، يختلف عن الأحسن من حيث الأجزاء التي تؤلف هذا الكل، وما تحدث عنه الفلاسفة بأنه "النظام الأحسن" إنما يربتط عالم الوجود كله. وقد ذكر الفلاسفة المسلمون هذا الأمر صراحة في المدرسة المشائية (بهمنيار، بلا تاريخ: ٦٦١) والإشراقية (سهرودي، ١٣٥٤: ١/ ٤٦٧) وفي الحكمة المتعالية (شيرازي، ١٣٨٢: ٤٠١) أن محور البحث هو النظام الكامل للوجود وأن الإنسان ليس معيارا لقياس الخير أو الشر في الوجود، بل هو نفسه جزء من أجزاء هذا النظام.

وفقًا لذلك، في تحليل وتفسير النظام الأحسن، لا ينبغي أن يكون الإنسان هو المعيار لأنه هو نفسه جزء في أجزاء الكون المتناغم والمنتظم. لأن حدثًا صغيرًا في الكون قد يبدو غير منسجما مع نفسه، لكنه سيكون منسجمًا مع كل مكونات الكون. (ابن سينا، ١٤٠٥: ١٥٢/٣).

١-٥- الاختلاف بين برهان النظم والنظام الأحسن

من أجل فهم مكانة النظام الأحسن بشكل صحيح، من الضروري أن نذكر أوجه الاتلاف بين برهان النظم والناظم الأحسن، حيث تظرأوجه الاختلاف في بعض أعمال الفلاسفة، وهنا نشسر إلى ثمانية نقاط تبين أوجه الاختلاف:

١- إن مجال إثبات النظام الأحسن هو الوجود الكامل ويشمل الكائنات المجردة والمادية، لكن مجال إثبات برهان النظم هو عالم الطبيعة والموجودات المادية فقط.

٢- إن مقدمة برهان النظام الأحسن (البرهان اللمي) هي عقلية ويقينية. على عكس مقدمة برهان النظم، وهي حسية وتجريبية، وبما أن النتيجة تتبع أخس المقدمات، فإن برهان النظم أخس من برهان النظام الأحسن.

٣- في عملية شرح "النظام الأحسن"، نسعى لإثبات وجود نظام في جميع أنحاء الكون، ويتضمن هذا النظم يتضمن أفضل حالة ممكنة من الانسجام والتناسق، ولكن برهان النظم، يكفي اثبات وجود نظام واحد لتبين واثبات برهان النظم.

٤- من خلال التحليل الصحيح لـ "النظام الأحسن"، سيتم حل مشكلة الشر، التي كانت من أهم المشاكل الفكرية للحكماء والمؤمنين بالله، بالمقابل نجد أن برهان

النظم لا يستطيع حل مشكلة الشر كما هو الحال بالنسبة لبرهان النظام الأحسن.

٥- في تصميم النظام الأحسن، يفترض وجود الحق تعالى وبعض صفاته، ولكن في برهان النظم، نسعى لإثبات المنظم.

٦- في إثبات "النظام الأحسن"، يتم استخدام طريقتين: "اللمي" و برهان الإني"، الأمرالذي يجل إثبات النظام الأحسن عقلي ويقيني، ولكن في إثبات برهان النظم، يستخد البرهان الإني فقط.

٧- لأننا في "النظام الأحسن" نحاول إثبات نظام واحد وهو النظام الأفضل الممكن، فإن إثبات وجود أي شر (بالحد الأدنى أو الأكثر) سيكون فجوة في تحليلنا. لكن إثبات مسألة الشر لن يشكل مشكلة في برهان النظم، لأن مصداق واحد في برهان النظم سيكون كافيا للوصول الى الهدف.

٨- يستند برهان النظم على الانسجام في أفعال وسلوك مجموعة ما (مطهري، ١٣٧٧: ٥/ ٨٥)، ولكن في تبيين تصور للنظام الأحسن، سيكون ترتيبها نتيجة الارتباط الضروري بين العلة والمعلول في سلسلة العلل الفاعلية والغائية (پور روستايي، ١٣٨٧: ٥٢).

٢- النظام الأحسن في الفلسفة

٢-١- الفارابي

لقد أشار الفارابي في مؤلفاته بإيجاز إلى موضوع "النظام الأحسن" وعرض قضايا الشر وتحققه، وما هو عليه وأنواعه. حيث يرى أن كل شيء موجود في جميع أنحاء الكون هو خير، وبما أن الخير هو السبب الأول والأصل في الكون، فإن جميع أجهزائه التي يتضمنها تعتبر أيضا خير.

لذلك فإن النظام برمته يقوم على العدل والاستحقاق. (فارابي، ١٣٩٢: ٨٢) في رأيه، يمكن رؤية الخير والصلاح في العالم. على الرغم من أنه لم يقدم شرحا تفصيليا لهذه النظرية في مؤلفاته، ولكن من حيث المسار التاريخي للبحث، فإنه من الضروري فهم وجهة نظر هذا الفيلسوف.

٢-٢- ابن سينا

يشرح الشيخ الرئيس هذه المسألة بالتفصيل في أعماله. حيث طرح هذا الموضوع في إلهيات الشفاء والنجاة تحت عنوان " في العناية و كيفية دخول الشر في القضاء الإلهي " (ابن سينا، ١٤٠٥: ٤١٥) حيث يشير في أعماله، بتعابير مختلفة، إلى وجود "النظام الأحسن" بين جميع الموجودات. كما يعتقد أن الكائنات، وفقًا للحكمة الإلهية، قد خُلقت في الشكل الأكثر كمالًا ولا يمكن تصور كمال أفضل من ذلك، وأن هذه الموجودات لم تحرم مما تستحقه. (ابن سينا، ١٣٨٨: ٢٥٦)

يعتبر الشيخ الرئيس أن الخير المحض هو ذات الحق تعالى، وهو منشئ وجود الممكنات وكمالاتها. وعلى هذا الأساس، فإن جميع الكائنات قد صدرت من قبله بنظامها الأحسن.(ابن سينا، ١٤٠٥: ٧٢)، كما يعتبر ويعتبر أن العلم العنائي للحق هو مصدر الخير في الكون، ويطلق على النظام الذي يقوم عليه "النظام الأحسن". وعلى هذا الأساس يعتبر أن الشر هو عدم الشيء أو عدم كمال الموجود. كما و يقسم الكائنات إلى خير خالص، وهو خالٍ من كل شر وفساد، وكائن، يرافق صلاحه ونفعه شر عرضي.

تتطلب "العناية الإلهية" أن يخلق الله تعالى أيضًا كائنات لها الكثير من الخير والقليل من الشر. لذلك، لا علاقة للشر بالصفات والأفعال الإلهية، وأن أي خلل في الكون أو نقص فإنه مرتبط بضعف وقصور في القابلية المادية للموجودات في عالم الطبيعية. لذلك، يمكن القول أنه في نظام ابن سينا الوجودي، فإن "النظام الأحسن" هو نظام من ناحية يتصف بالكمال والأفضلية، ومن ناحية أخرى، لديه القليل من النقص والعيوب والآفات المحدودة وهذا النقص يتعلق بعالم الطبيعية فقط.

تجدر الإشارة الى أن ابن سينا لم يتبع طريقة البرهان الإني في توضيح النظام الأحسن، بل استخدم البرهان اللمي المبني على مفهوم العناية الإلهية (ابن سينا، ١٤٠٥: ٤١٥).

يعتقد ابن سينا ، فإن معرفة الله بنظام الخير ترجع إلى المعرفة المتأصلة بذاته وأنه العلة في خلق العالم الأمر الذي سبب إفاضة الوجود بأفضل طريقة، دون الحاجة إلى تدخل خارجي سوى ذاته تعالى. يصف ابن سينا العناية بأنها "الإحاطة العلمية للحق تعالى بنظام الوجود بأكمله" ويعتبر نظام الوجود، الذي يتحقق على أساس هذه العناية، هو النظام

الأحسن. كما يرى أن العلم الإلهي هو مصدر الخير بين الموجودات وسببا في تنظيمها الدقيق. (ابن سينا، ١٤٠٥: ٣/ ٣١٨)

كما يصرح في أعماله الأخرى عند طرحه لقضية العناية الإلهية أن الله خير وعاقل لاته ومحب لها، ولأن الله تعالى يحب ذاته وذاته هي مبدء الوجود، فإن كل ما هو صادر عنه يعتبر "نظاما أحسن". إن العناية الذاتية لله هي "صدور الخير لذاته"، وليس له غرض خارج ذاته في هذا الفيض.

لذا فإن ذات الحق هي مبدء الوجود. وعليه، فإن عناية الله للموجودات- عناية الله الفعلية- تخضع لعنايته لذاته، واالعلم الإلهي باته هو مبدء الموجودات. (ابن سينا، ١٣٨٩: ١٥٦-١٥٧)

في مكان آخر، يذهب ابن سينا الى أن كل غاية لاترتبط بالمبادئ العالية والمجردات المحضة فغن المبادئ العالية والمجردات لن تنفذ افعالها؛ لا يمكن أن يكون هذا الإصدار مقصوداً ولا بطبيعته أو عرضه. إنه يعتبر أن رعاية الله للمخلوقات هي سبب صدور الكائنات. (ابن سينا، ١٤٠٥: ٣/ ١٥٠-١٥١)

لذلك، فإن عناية الله وحدها هي مصدر افاضة الوجود. وأن الله الفاعل بالإرادة، قد تعقل أكمل نظام ممكن، وقد أفاضه بأكمل وأجمل طريقة ممكنة، دون تدخل أي شيء آخر خارج عن ذاته؛ هذا الفيض كان سببا في خلق العالم في أعلى درجات الكمال (مطهري، ١٣٧٧: ٨/ ٣٩٤)

باختصار، في فكر ابن سينا، هناك ثلاثة عناصر رئيسية متضمنة في تعريف العناية الإلهية: ١- العلم بالنظام الخير. ٢- علية ذات الواجب لذاته لكل الممكنات. ٣- إرادة ورضا الله عز وجل للنظام الأحسن. يقول ابن سينا: كل أعمال الله تعالى ناشئة من علمه. علم لا نقص فيه ولا جهل وهو هو ثابت لا يتغير. ولله تعالى له علم كامل وإحاطة شاملة بنظام الأشياء وكمالها، وصدورالنظام الأحسن كان من خلال إرادته. (ابن سينا، ١٣٨٨: ٢٥٠)

وبحسب مخطط ابن سيناء فإن التقرير المنطقي ومقدمات تصور النظام الأحسن هي كما يلي:

١. الله له علم بذاته ومالاته وآثاره، ولأن له علم بذاته فإن له علم بالنظام الأحسن.

٢. علمه بذاته وكمالاته سببا لحبه لذاته وكمالاته

٣. الحب هو الكمال وكل مخلوق محبوب بقدر الكمال والجمال. لذلك، يحب الله أعماله وكماله، لذا فإن هذه الأعمال (نظام الكون) متوفرة بأفضل وأكمل طريقة ممكنة؛ وعليه فإنه يخلق العالم بأفضل طريقة ممكنة.

٤. حب الذات يتعلق بداية بذاته، ثم بمبدء العالم، وبعد ذلك ينتمي كمال الكون، الذي هو نهايته، إلى الحب الإلهي، وهذا هو تدبير الله تعالى.

وخلاصة كلام ابن سينا أن ذات الله بما أنها كمال وجمال مطلق فغنأي معلول يصدر عنها يجب أن يكون على النحو الاتم والأحسن، لأن فاعل وعلة هذا الظام هو الكمال المطلق، بالتالي الوجود الصادر عنه يجب ان يكون وجودا تاما وكاملا.(شيرازى، ١٣٦٩: ٨٦١-٨٦٢).

٢-٣- الفخر الرازي

يرى فخر الرازي أن "النظام الأحسن" يقوم على هذين المبدأين: ١- الله كائن كامل ومطلق وخال تماماً من النقص. ٢- يستطيع الله أن يخلق عالما "بنظام أحسن" بناء على مشيئته. ولكن بما أن المخلوق لا يمكن أن يكون مطلقًا، لأنه كائن محدود، ومن ناحية أخرى، فإن جميع صفات الله غير محدودة، فلا يمكن القول أنه لا يمكنه إنشاء عالم آخر إضافة الى هذا العالم. مع هذا البيان يمكننا القول أنه في نهاية هذا العالم، أو أي عالم آخر، هناك فراغ؛ يمكن أن يخلق الله عالماً "بنظام أحسن" أو يخلق عوالم مختلفة، في نفس الكمال أو في كمال مختلف.

يقول فخر الرازي: إذا قلنا أن هذا العالم هو النظام الوحيد الجيد أو أن العالم الآخر هو أفضل نظام، لإننا نقوم بتحديد قدرة الحق تعالى لأن الكمال المطلق للحق تعالى ضروري له ولن يسلب منه أبدا. بالتالي يمكن للحق تعالى أن يخلق عالم آخر بنظام أحسن اذا ما أراد ذلك، بالتالي لا يمكن أن نقول على وجه اليقين: أن عالمنا الحالي هو أفضل نظام ممكن. على هذا الأساس، يُفهم من كلام فخر الرازي أنه لا يوجد دليل مقنع على أن هذا عالم الوجود الحالي هو النظام الأحسن. لكن عالم الممكنات والحالي سيكون بالتأكيد أفضل عالم ممكن.

لأنه في النهاية يوجد فراغ في هذا العالم لا علاقة له بهذا الكون، وبما أن الله سبحانه وتعالى قادر على خلق كل شيء ممكن، بالتالي يمكنه أن يخلق عوالم أخرى في الفراغ الموجود في نهاية كل كون، وهذا العالم الذي يمكن خلقه هو متساوٍ، أو أفضل أو أقل من عالمنا. بالتالي لا يمكن القول على وجه اليقين أن عالم الوجود هو الألفضل أو نظامه هو النظام الأحسن..(الرازي، ١٣٨٢: ٥/ ١٥٥؛ شيرازى، ١٣٦٩: ٢٣؛ الرازي، ١٤١٢: ٢/ ٣٣)

٢-٤- السهروردي

يرى السهروردي أنه من خلال النظام النوري للكون، فإنه يلزم من المحبة والعشق - الموجدان في كل الكون- تحقق النظام الأحسن والاتم، وبحسب المبادئ الوجودية لشيخ الإشراق، فإن مظاهر القهر والمحبة ضرورية لدى الحق تعالى.

فالقهر يكون من الموجود الأعلى الى الموجود الادنى، والمحبة تكون من الموجود الأدنى الى الموجود الأعلى، وبهذا يكون النظم العالم قائم على المحبة والقهر.(سهرودي، ١٣٥٢: ١٣٧). كما يرى أن النظام الأحسن مستمر لأن القهر والحب الذان يقوم عليهما نظام الوجود دائما السريان في الوجود، حيث أن الوجود النوعي القهري من قبل النور العالي بالنسبة للنور السافل والضعيف، والوجود النوعي للحب والشوق يكون من النور السافل الى النور العالي. (نفس المصدر: ١٣٦)

كم يعتقد السهروردي في العديد من أعماله، أنه لو لم يكن الحب والشوق لما وجد أي موجود.(سهرودي، ١٣٥٤: ١/ ٤٣٣) كما يذهب الى أن العشق والحزن توأمان وأن هذا الشغف والحب هما من أوجد العالم (نفس المصدر: ٣/ ٢٦٩).

وبحسب مبادئ الإشراق، ينبغي القول القهر والحبة ضرورية لدى الحق تعالى، القهر من الأعلى الى الأسفل، والحب من الأسفل الى الأعلى، فلكل علة نورية هناك محبة قهرية بالنسبة لمعلولها ولكل نور سافل أيضا هناك محبة لعلته تلازمه دائما. (نفس المصدر: ٢/ ١٤٨).

في نظام الأنطولوجيا الإشراقية، يكون نور الأنوار أكمل وأجمل الموجودات بالتالي يكون أجمل وأنور موجود بالنسبة لذاته، وبما أن نور الأنوار ليس زائدا على ذاته بل هو عين ذاته، لذا فإن حبه لذاته ليس زائدا عليها، بل هو عين ذاته، وبماأن نور الأنوار لا يمكن

قياسه مع سائر الأنوار، كذلك لا يمكن قياس حبه لذاته مع حب الآخرين، بالتالي نظم الكون مبني على القهر والحب. (نفس المصدر: ٢/ ١٣٥)

٢-٥- الميرداماد

يذهب الميرداماد الى استحالة وجود عالم أفضل أو مماثل لهذا العالم من حيث الكمال والأفضلية، أن هذا الأمر ممتنع بالذات، لأن الله فعال لما يشاء وفياض مطلق، وعليم وحكيم وجواد مطلق، بالتالي لا يمكن أن يتوقف فيضه وخيره.(ميرداماد، ١٣٥٥: ٢٥٣)

للميرداماد تقريرين حول "النظام الأحسن":

التقرير الأول: نظام الوجود برمته هو شخص واحد يتم التعبير عنه بالإنسان الكبير. كما أن العلم الإلهي محيط بكل العالم، وقدرته تامة وحكمته بالغة، والعالم كشخص واحد حسب قاعدة الإمكان الأشرف في أتم وجه ممكن، لأنه لو كان يحتمل وجود عالم أشرف من الحالي لقام الحق بإيجاده بدل هذا العالم، بالتالي لا يوجد إلا هذا العالم، وهو النظام الأحسن (نفس المصدر)

التقرير الثاني: وهو تقرير برهاني قدمه الغزالي أولاً ثم ابن عربي في فتوحاته وقطب الرازي في حكمة الإشراق (شيرازي، ١٣٨٧: ٤٩٣) وأخيراً الملا صدرا في أعماله استفاد منها وسعى لإتمامها. (شيرازي، ١٤١٠: ٧/ ١٢٢) و بحسب هذه البرهان، فبعد إثبات صفات الكمال مثل العلم والقدرة المطلقة والفيض الذاتي لله تعالى، وبحسب الصفات الكاملة لله تعالى، يكون الكون في كمال واتقان، لأن سبب الخلق منزه من كل عيب أو شر.

بناء على ذلك، إذا كان علة الوجود وخالقه لم يخلق العالم في النظام الأحسن والأكثر كفاءة، أو أنه ليس لديه علم بالنظام الأحسن، أو لا يملك القدرة على إنشائه، أو لا يريده أو كان بخيلًا في خلقه! فهذا كله يعني وجود نقص في ذات الحق تعالى وصفاته، بالتالي تم استبعاد جميع الفرضيات السابقة المتعلقة بالحق تعالى. ولا يبقى إلا أن يكون هذا العالم باعباره فعل الحق، هو النظام الأحسن. (شيرازي، ١٣٨٧: ٤٩٣)

٢-٦- ملاصدرا

يذهب الملا صدرا الى أن وجود "النظام الأحسن" هو شرط للعناية الإلهية، والعناية

الإلهية قائمة على الأركان الثلاثة لعلم والعلية والرضى الإلهي. فذات الحق هي نفس العلم بالنظام الأحسن، والعلية سبب تام لنظام الخير، وعين الرضا هي المشيئة.(سجادي، ١٣٨٧: ٣٦٦) الفهم الصحيح للعناية الإلهية من وجهة نظر ملا صدرا تساعد كثيرا على الفهم الصحيح للنظام الأحسن، لأن الله، وفقًا لكماله المطلق وضرورة فيضه ووجوده، لا بد أن يفيض بالنحو الأكمل النظام الأحسن (شيرازي، ١٤١٠: ٧/ ٩١)

٢-٧- تبيين مفهوم الأفضلية للعالم في سير النزول

يتحقق نوعان من الكائنات في السير النزولي وصدورالموجودات من العلة،: الموجودات المادية والموجودات المجردة. الكائن المجرد من المادة ليس هناك كثرة في نوعه، ونتيجة لذلك سيكون نوعه فريدا. تعتبر هذه الكائنات أشرف من حيث الشخص لأن كل الكماليات التي يتم تصورها في نوع الكائنات المادية في شخص هذا الكائن الوحيد تتحقق بالكامل ولأنها منفردة وليس فيها كثرة وتعدد، فلا معنى للتفاضل بين الشريف والأشرف فيها.

لذلك، لا يمكن الافتراض أن هناك شخص أكثر شرفا مما أوجده الله في السير النزولي هو أمر مستحيل، طالما أنه من الممكن صدور الموجود الأشرف فإن صدور الموجود الأخس من الحق تعالى أمر مستحيل، لأنه وفقًا لهذه القاعدة، يجب أن يتم صدور الأشرف من الصادر الأشرف. يعتبر حكماء الإسلام أن قاعدة إمكان الأشرف هي دليل في هه المسألة، حيث أن الموجودات الأكمل والأشرف موجودة ولا يمكن أن يوجد أكمل وأشرف منها. (ابن سينا، ١٤٠٥: ٣٢٥)

ويتم الاستدلال بهذا البرهان على كمال العالم على أساس قاعدة إمكان الأشرف كما يلي:

١- وفقا لهذه القاعدة، الممكن الأشرف يكون مقدما على الممكن الأخس، لذلك، عندما يتحقق الممكن الأخس لا بد أن يكون الممكن الأشرف قد تحقق قبله، لا لا يمكن تصور وجود أفضل من الوجود الحالي، لأنه لو أمكن ذلك للزم تحققه قبل هذا العالم، وبهذذا النحو في كل مرتبه من مراتب الوجود اا أمكن تصور مرتبة أفضل لا بد أن تكون هذه المرتة الأفضل قد سبقت المرتبة الأخس في الوجود،

وبناء عليه فإن هاذ العالم هو النظام الأحسن ولا يمكن أن يكون هناك احتمال لنام أحسن منه. (شيرازي، ١٤١٠: ٧/ ١٤٦)

٢- الكائنات المادية التي فيها كثرة. هذه الكائنات المادية هي الأشرف والأحسن من حيث نوعها لأنه وفقًا لقاعدة إمكان الأشرف، فإن عالم الطبيعة هو تنزل لعالم المثال وعالم المثال هو تنزل لعالم العقول، بالتالي فإن علة تحقق الموجودات المادية في عالم الطبيعة هو الموجودات المجردة والمثالية لذا يفاض يفاض أفض نوع ممكن. (نفس المصدر: ١٠٧)

٢-٨- تبيين مفهوم الأفضلية في الوجود في السيرالصعودي

السير النزولي والصعودي واحد للموجودات المجردة، في حين أن في أن سير الموجودات الطبيعية الناقصة مختلف ويحتاج لتبيين. موجودات عالم الطبيعة قد صدرت من مبدأ الفيض طبقا للعناية الإلهية (نفس المصدر: ١١٢) وكل سلاسل العلل ترجع الى علة العلل الواحدة حيث أن كل العلل ليست إلا آية ومظهر لعلة العلل.

في الواقع، هناك اتصال وتناغم ضروري ومنظم ومتماسك بين سلسلة الموجودات. وعليه، فإن الغاية ونهاية السير لجميع الموجودات هو مبدأ الوجود، وهذه الموجودات هي آية ومثال لمثالها الأعلى. وفي النهاية، فإن الموجود الأعلى والأسمى هو المبدأ التام لكل الوجود.

٣- النظام الأحسن في العرفان

العالم وتنظيمه في مدرسة العرفان يرجع الى نظام التجلي والظهور، والكثرات التي تشاهد في العالم هي كثرات التجليات ومظاهر للأسماء والصفات، بالتالي كل العالم هو جمال وكمال، من حيث الوحدة الشخصية (لا الوحدة التشكيكية) التي يقول بها العرفاء، اذا لوحظت الكثرة فهي بلا شك تجليات ومظاهر للواحد وهي ظل الحقيقة المطلقة. (جوادي آملي، ١٣٨٧: ٣/ ٢١٧)

يذهب العرفاء في تبيين النظام الأحسن الى أن اسم الرحمن كلي وشامل كل الأسماء الحسنة وكل العالم ليس إلا مظهر للجمال المطلق والذي له سريان في كل نظام الوجود.

فحتى لو بدت مظاهر الجلال الإلهية شرا، فإن كل العالم في النهايةة هو جمال بشكل مطلق، ولا وجود للقبح والشر، حيث أن الله سبحانه قد خص كل مخلوق بكماله الخاص المتناسب معه. (ابن عربي، بلا تاريخ-الف: ٣/ ٤٩٩).

فيما يتعلق بالأسماء الجمالية، فأن بعض مراتب الظهور الجلالي قد يبدو فيها شرا، وهذا لا يعني أن كل ما هو متعلق بالجلال قبيح بذاته. (القونوي، ٢٠١٠: ١٤٣) والأسماء الإلهية مثل العليم، القدير، المريد والمظاهر الخلقية مثل الجماد والنبات والإنسان، وبما أنها ترجع إلى الحق فإن لها علو وشرف بالذات، بالتالي لا يوجد أي شر في العالم. (ابن عربي، بلا تاريخ-ب: ٢٢) بالتالي لا يوج أحسن وأفضل من هذا العالم.

يمكن استخراج طريقة اثبات النظام الأحسن من آثار العرفاء من ثلاثة طرق: الأسماء الإلهية، الوحدة الشخصية لحقيقة الوجود، والأعيان الثابتة.

٣-١- الأسماء الإلهية

في عرفان، العالم كله ظل الحق تعالى، ومظهر الأسماء الإلهية، كما يذهب العرفاء الى أن الأسماء الحسنى هي أسماء وصفات الحق تعالى، بالتالي فإن نظام العالم هو النظام الأحسن، بمعنى آخر، اذا كان الحق تعالى حقيقة وباطن العالم بالتالي فإن صفات وآثار العالم ستون صادرة عنه، بالتالي لا يمكن أن يكون هناك عالم أكمل وأحسن من العالم الحالي، لأن هذا العالم هو ظل النظام الأسمائي للحق. (ابن عربي، بلا تاريخ-ب: ١٧٢)

من حيث الحيطة والسعى الوجودية فإنه لا يوجد اسم أقرب الى اسم الله من اسم الرحمن، وهذين الأسمين هما أساس الأسماء الإلهية، وكل ما يظهر من الكمالات العملية والعلمية للمظاهر والتجليات الخلقية، إنا يظهر بواسطة الأسماء الكلية لأن اسم الرحمن وكل المظاهر الإمكانية هي مظهر للذات والصفات والأفعال الإلهية. (آملي، ١٣٦٨: ٧١٢)

يذهب ابن عربي الى أنه لظهور اسم الرحمن هناك ثلاث مراتب: الرحمة الذاتية، والرحمة الأسمية، والرحمة الفعلية، فالرحمة الذاتية هي تجلي الحق لذاته، والرحمة الأسيمة هو ظهور الأعيان الثابتة، ومن حيث التجلي هي الفيض الأقدس، والرحمةى

الفعلية هي ظهور الأعيان الخارجية والتي تظهر بواسطة النفس الرحمانية أو الفيض الأقدس. (ابن عربي، بلا تاريخ-ب: ١٧٧)

٣-٢- الوحدة الشخصيّة للجود

إن النظام الحاكم للعالم في العرفان هو نظام التجلي والظهور، والذي يتبع الى نظام الأسماء الإلهية، والتنوع والكثرة التي تبدو متحققة في الخارج إنما هي ظهورات وتجليات أسماء وصفات الحق تعالى، بالتالي فإن بحث التجلي قائم على أصل نظرية الوحدة الشخصية للوجود.

فوحدة الوجود تعني انحصار الوجود في حقيقة واحدة، أي أن الوجود الحقيقي بالذات في العرفان له مصداق واحد فقط، حقيقة واحدة بسيطة، فالأمر الوجودي في العرفان هو الأمر المنسوب الى الوجود، أي أن المظاهر الإلهية لها وجود مجازي، وكل الموجودات والظهورات ليست إلا آية للحق تعالى.

في نظام الوجود لا يوجد تحقق للخير الذاتي والمطلق إلا للحق تعالى، فلا يمكن إضافة الإطلاق على الخير والشر بالإضافة، بل أن الخير والشر يكونان مقيدان ومضافان في التعينات، وبما أن ((بسيطه الحقيقة كلالاشياء و ليس شيئ منها)) والحق تعالى هو الوجود الغير متناهي، بالتالي لا يوجد مكان لوجود آخر لأن الوجود منحصر بالحق تعالى.

حمل كل موجود على بساطة الحقيقة وبالعكس، يعني حمل موجود بشيط على موجود آخر، فإذا كان حمل ذو هو أو حمل حقيقي فإنه يكون الحمل متناسب مع التشكيك، واذا كان الحمل هوهو يا حمل ظاهر على المظهر، فإن كل كمال يكون هو ولا يوجد أي كمال دونه (جوادي آملي، ١٣٩٥: ٢/ ٢٥٧) حيث يوجد حقيقة واحدة بسيطو بلا أي قيد ولا أي حكم خاص ولا يمكن لأي حكيم أو عراف أن يشهده.(ابن عربي، بلا تاريخ-ب: ص٩٠)

بالتالي وحسب نظرية وحدة الوجود فإن النقص والقبح يمكن أن تكون في الوجود لكنها معدومة بالذات في أصل الوجود، وكل الموجودات هي مظر وآية للخلق، ولا يوجد أي دنو وخبث في العالم، بالتالي العالم هو النظام الأحسن.

٣-٣- الأعيان الثابتة

يرى العرفاء أن الحق تعالى له تجليين، تجلي ذاتي وتجلي فعلي، حيث ومن خلال التجلي الفعلي وكمالاته يظهر نظام الوجود، وما يتم خلقه من قبل الحق إنما يكون بحسب مقتضى العين الثابتة للمخلوق، وتجلي الحق يكون تابعا لأحوال الممكنات في عينها الثابتة.

بالتالي فإن كمال كل موجود يكون بمقتضى الأعيان الثابتة للموجودات في مقام الأحدية.(ابن عربي، بلا تاريخ-ب: ٤٢١) يوجد في العرفان الإسلامي بحث قيق حول تابعية العلم للمعلوم وبالعكس، وواحدة من نتائج تبعية العلم للمعلوم هو ان ارادة وعلم الحق تعالى تكون موجودة بنحو تابع لاقتضاء الأعيان الثابتة. (ابن عربي، بلا تاريخ-ب: ٤٢٢)

في النهاية كل الموجودات، هي مهر للأعيان الثابتة والأسماء والصفات الإلهية، والأسماء هي أيضا من حيث أنها تعينات وتجليات ألهية، وفي غاية الكمال والجمال، فإنها طبقا لاتحاد الظاهر والمظهر يجب أن تكون مرآة للأسماء والصفات التي هي في غاية الكمال والجمال، بالتالي هذا العالم هو النظام الأحسن.

النتيجة:ـ

استدل الفلاسفة على النظام الأحسن من خلال البرهان اللمي، وبشكل عام خلق الموجودات هو مطابق للعلم الإلهي والذي يترافق مع الرضى والإرادة الإلهية للفعل، وهذا يعني العناية الإلهية.

بالتالي يذهب الفلاسفة الى أن النظام الأحسن يسندوه الى إحدى الصفات اللإلهية وهذه الصفة هي عين الذات الإلهية ولا تستقل عن الذات، بمعنى آخر، علة النظام الأحسن عند الفلاسفة تنتهي الى ذات الحق تعالى.

أما العرفاء فقد ساروا من العلة الى المعلول، واستخدموا البرهان اللمي مثل الفلاسفة، وحتى لو كان ظاهر كلامه يتناقض مع كلام الفلاسفة إلا أنه في الحقيقة نفس كلام الفلاسفة، لأن العرفاء يعتقدون أن الخلق هم مظاهر للأسماء والصفات الإلهية، والأسماء والصفات الإلهية تنشئ أيضا من الذات الإلهية، وبما أن الأسماء الإلهية حسنة ومن حيث الظاهر والمظهر متحدة مع بعضها البعض، بالتالي فان العالم قد تم إيجاه على أحسن وجه ممكن،

بالتالي نجد العرفاء أيضا قد نسبوا النظام الأحسن الى الذات الإلهية.

وعليه، يمكن أن نصل الى أن وجهة نظر الفلاسفة العرفاء في ما يتعلق بالنظام الأحسن واحدة، رغم اختلافهم في المبنى.

قائمة المصادر و المراجع

١- ابن سينا، حسين بن عبد الله، (١٤٠٥)، الشفاء، الهيات، دار النشر: مكتبة آيت الله مرعشي، قم، ايران.

٢- ابن سينا، حسين بن عبد الله، (١٣٨٩)، التعليقات، مؤسسة: پژوهشي حكمت و فلسفه، الطبعة الأولى، طهران، ايران.

٣- ابن سينا، حسين بن عبد الله، (١٤٠٥)، شرح الإشارات و التنبيهات، دار النشر: مكتبة آيت الله مرعشي، قم، ايران.

٤- ابن سينا، حسين بن عبد الله، (١٣٨٨)، مجموعه رسائل، تصحيح سيد محمد طاهري، دار النشر: آيت اشراق، الطبعة الأولى، قم، ايران.

٥- ابن عربي، محي الدين محمد، (بلا تاريخ-الف) الفتوحات المكية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

٦- ابن عربي، محي الدين محمد، (بلا تاريخ-ب)فصوص الحكم، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، بيروت، لبنان.

٧- انوري، حسن، (١٣٨١)، فرهنگ بزرگ سخن، دار النشر: وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، الطبعة الأولى، طهران، ايران.

٨- آملى، سيد حيدر، (١٣٦٨)، جامع الأسرار و منبع الأنوار، دار النشر: مركز النشر العلمي والثقافي، الطبعة الأولى، طهران، ايران.

٩- بهمنيار، مرزبان سالاري، (بلا تاريخ)، التحصيل، تصحيح مرتضي مطهري، انتشارات دانشگاه تهران،.

١٠- پور روستايي، جواد، (١٣٨٧)، رهيافتي قرآني به نظام أحسن، بوستان كتاب، الطبعة الأولى، قم، ايران.

١١- جوادي آملي، عبد الله، (١٣٨٦)، تبيين براهين اثبات خدا، دار النشر: اسرا، الطبعة الخامسة، قم، ايران.

١٢-جوادي آملي، عبد الله، (١٣٩٥)، رحيق مختوم، دار النشر: اسرا، قم، ايران.

١٣- جوادي آملي، عبد الله، (١٣٨٧)، سرچشمه انديشه، دار النشر: اسرا، الطبعة الأولى، قم، ايران.
١٤- الرازي، فخر الدين، (١٤١٢)، الأربعين في أصول الدين، مكتبة الكليات، القاهرة، مصر.
١٥- الرازي، فخر الدين، (١٣٨٢)، المباحث المشرقيه في علم الهيات و الطبيعيات، دار النشر: ذوي القربى، قم، ايران.
١٦- راغب اصفهاني، حسين، (١٤١٢)، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داودي، دار القلم، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان.
١٧- سبحاني، جعفر، (١٤٢٠)، الله خالق الكون، المركز العالمي للدراسات الاسلاميه، قم، ايران.
١٨- سجادي، سيد جعفر، (١٣٨٧)، فرهنگ اصطلاحات فلسفي ملاصدرا، طهران، الطبعة الثانية، إدارة الطباعة والنشر في وزارة الثقافة، طهران، ايران.
١٩- سجادي، سيد جعفر، (١٣٨٥)، فرهنگ علوم فلسفي و كلامي، إدارة الطباعة والنشر في وزارة الثقافة، طهران، ايران.
٢٠- سهرودي، شهاب الدين، (١٣٥٢)، حكمة الإشراق، تصحيح سيد حسين نصر، طهران، مركز مطالعات فرهنگي، طهران، ايران.
٢١- سهرودي، شهاب الدين، (١٣٥٤)، مجموعه مصنفات، تصحيح هنري كربن، طهران، دار النشر: انجمن حكمت و فلسفه ايران، طهران، ايران.
٢٢- شيرازي، قطب الدين، (١٣٨٧)، شرح حكمة الاشراق، تصحيح محمد موسوي، طهران، دار النشر: حكمت، طهران، ايران.
٢٣- شيرازي، محمد بن ابراهيم، (١٤١٠)، الأسفار الاربعة، دار إحياء التراث الاسلامي، الطبعة الرابعة، بيروت، لبنان.
٢٤- شيرازي، محمد بن ابراهيم، (١٣٨٢)، شرح أصول الكافي، تصحيح محسن بيدار فر، دار النشر: بيدار، قم، ايران.
٢٥- شيرازي، قطب الدين، (١٣٦٩)، درة التاج، دار النشر: حكمت، الطبعة الثالثة، طهران، ايران.
٢٦- فارابي، أبونصر، (١٣٩٢)، فصول منتزعه، دار النشر: مؤسسة پژوهشي حكمت و فلسفه إيران، الطبعة الأولى، طهران، ايران.
٢٧- القونوى، صدر الدين، (٢٠١٠)، مفتاح الغيب(مصباح الأنس)، دار الكتب العلميه، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان.
٢٨- مطهرى، مرتضي، (١٣٧٧)، مجموعه آثار شهيد مطهرى، دار النشر: اسراء، الطبعة: الثامنة، طهران، ايران.
٢٩- ميرداماد، محمد، (١٣٥٥)، قبسات، مؤسسة مطالعات مك گين، الطبعة الثانية، طهران، ايران.